أصول النحو السماعية
في كتاب الخصائص لابن جني

د. محمد محمد فراج عمر

أصول النحو : أدلة النحو التى تفرعت منهـا فروعه ، وفائدته : التعويل فى اثبات الحكم على الحجة والتعليل والارتفاع عن حضيض التقليـــد .

ولأستاذنا الدكتور محمد رفعت فتح الله تعريف بليغ لأصول النحو قال : أصول النحو ثمالة ودباغة وهى ميزان قواعده اذا اضـــطرب التقدير ، ومصباحها اذا أظلم السبيل ولديها مجلس القضاء اذا اختصمت المذاهب النحوية يفيض منها عرق العصبية ، واليها مرجـــع التجديد السليم على الأساس الصحيح اذا أراده دعاة التجديد فى هـذا العصر الذى تغشاه الادعاء ، واذا كان النحو فى الكلام كالملح فى الطعام فان هذه الأصول مصانع اعداده وانقائه » (١) .

وأصول النحو السماعية قائمة لدعم النحو بطريقيه « مفـــردا ومركبا » باعتبار أطلاق النحو على التصريف ، كما تقوم لدعم اللغـة أيضا ، ولكنها أصيبت بالاهمال والاغفال أكثر مما أصيبت سائر الأصول حتى ان نصيبها من كتاب الاقتراح للسيوطى — وهو المتأمل الجامع — صفحات لا تبلغ عدد الأصابع (٢) .

---

(١) أصول النحو السماعية — رسالة دكتوراه — كلية اللغة العربية بالقاهرة رقم ٨٣٥١ .

(٢) المعنى والاعراب عند النحويين ونظرية العامل ص ١١ — رسالة دكتوراه — عبد العزيز عبده أبو عبدالله — كلية اللغة العربية بالقاهرة .

وهذه الأصول منسوبة الى سماع الكلام العربى سواء أكان ذلك الكلام من كلام الله المعجز المتواتر أم لم يكن منـــه وسواء أكان ذلك الثانى مما استفرد بروايته وتدوينه لمقام الرسالة والتشريع أم لم يكن له ، فهذه الثلاثة هى :

١ ــ القرآن الكريم :

القرآن الكريم المصدر الأول من مصادر النحو السماعية لأن النحو العـــربى كان وليدا لم تكتمل قواه ، ونما هـــذا الوليد فى ظلال الرعاية وتطور الى أن ازدهر عوده واكتمل نموه ليؤدى رسالته فى الحياة .

ونشأة النحو العربى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم ، ولولا هذا القرآن لمـــا نشأ هذا العلم الذى تمت له السيطرة فيما بعد على كل علم من علوم العربية وآدابها (١) .

وكتاب المقتضب لأبى العباس محمد بن يزيد المبـــرد المتـــوفى سنة ٢٨٥ هـ (٢) يعد أهم مصدر فى دراسة النحـــو العربى بعد كتاب سيبويه ، فهو من أقدم ما وصل الينا من كتب النحو ، والـيـــه يرجـــع الدارسون فى كل ما يكتبون عن النحو وأصوله وعن الأساليب العربية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) ينظر ترجمة المبرد فى : معجم الأدباء ١٩/١١١ ــ ١٣٢ ، وأخبار النحويين البصريين ص ٧٢ : ٨٠ ونزهة الألبـــا ص ٢٧٩ ــ ٢٩٣ ، وأنباه الرواة ٣/٢٤١ : ٢٥٢ ، ومقدمة المقتضب ١/١١ .

وكان القرآن الكريم مصدرا مهما للمبرد حينما وضع القـــواعد ودون الأصول ، ولم يكن فى النص القرآنى اختلاف لأنه من لدن عزيز حكيم وانما كان الاختـــلاف فى قراءاته • ومن هنا وقف النحاة مواقف مختلفة منها لأن حقيقتها تغاير حقيقة القرآن •

يقول الزركشى « فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والاعجاز ، والقراءات هى : اختلاف ألفـــاظ الوحى المذكور فى كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما » (١) •

ومن سمات القرآن العظمى توانره لأن ما ينقل آحادا ليس بقرآن يقول الغزالى «القرآن هو ما نقل الينا بين دفتى المصحف تواترا» (٢)•

ويقول السيوطى « ان كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا فى أصله وأجزائه فانكار شىء من القرآن الآن يوجب الكفر » (٣) •

وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن دون ســـائر الكتب فقال «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»(٤) اجلالا لأعظم معجزات النبى محمد صلى الله عليه وسلم واهتم المسلمون بكتابهم وكان الرسول العظيم أول من أمر بكتابته فى صحف متفرقة خوف أن يختلف المسلمون فيه وأمرهم ألا يكتبوا شيئا عنه غير القرآن والحديث (٥) •

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣١٨/١ •

(٢) دراسات فى كتاب سيبويه للدكتورة خديجة الحديثى ص ٩ ـ وكالة المطبـوعات الكويت ـ نقلا عن القراءات واللهجـات لعبد الوهاب حمودة ص ٦١ •

(٣) الاتقان فى علوم القرآن ٧٩/١ •

(٤) سورة الحجر الآية ٩ •

(٥) ينظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٥٨/١ ، ٩٢ ، ودراسات فى كتاب سيبويه ص ١٠ •

ولقد نال القرآن اهتماما كبيرا وضبط نصه بحيث لا يرقى اليه أدنى ريب وأصبح المثل الأعلى ، اليه يفزع الفقهاء ، ومنه يأخذ علماء اللغة شواهدهم التى يبنون عليها قواعدهم وأصولهم .

وكان أبو العباس المبرد من أكثر النحاة تمسكا بالشاهد القرآنى وكان يضعه فى المرتبة الأولى لأنه ابلغ كلام نزل وأوثق نص وصل الينا ولأنه يمثل العربية الأصيلة والأساليب الرفيعة ، ويخاطب العربى بلغته التى جبل عليها .

وقد تجاوزت الشواهد القرآنية فى كتاب المقتضب خمسمائة آية ، وكان المبرد يبسط القول فى بعض الآيات ويذكر بعض القراءات وتوجيهها أحيانا (١) .

ويمكننا أن نتبين ذلك من خلال عرضنا لجانب من استشهاده بالآية القرآنية وموقفه من القراءة القرآنية .

قال فى « باب حروف العطف بمعانيها » فمنها « الواو » ومعناها : اشراك الثانى فيما دخل فيه الأول ، وليس فيها دليل على أيهما كان أولا نحو قولك : جاءى زيد وعمرو ، ومررت بالكوفة والبصرة ، فجائز أن تكون البصرة أولا كما قال الله عز وجل « واسجدى واركعى مع الراكعين » (٢) والسجود بعد الركوع (٣) .

وفى هذا الباب يقول أيضا : ومنها « أو » وهى لأحد الأمرين عند

---

(١) ينظر مقدمة المقتضب ١/ ٩٥ .
(٢) سورة آل عمران آية ٤٣ .
(٣) المقتضب ١٤٨/١ .

ترك المتكلم أو قصده أحدهما وذلك قولك : أتيت زيدا أو عمرا وجاءنى رجل أو امرأة .

هذا اذا شك ، فأما اذا قصد فقوله : كل السمك أو اشرب اللبن : أى لا تجمع بينهما ، ولكن اختر أيهما شئت ؟ وكذلك أعطنى دينارا أو أكسنى ثوبا .

وقد يكون لها موضع آخر معناه الاباحة وذلك قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين وائت المسجد أو السوق : أى قد أذنت لك فى مجالسة هذا الضرب من الناس وفى اتيان هذا الضرب من المواضع .

فان نهيت عن هذا قلت : لا تجالس زيدا أو عمرا : أى لا تجالس هذا الضرب من الناس ، وعلى هذا قول الله عز وجل : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » (١) ، (٢) .

وفى نفس الباب يقول أيضا « وأما » فى الخبر بمنزلة (أو) وبينهما فصل ، وذلك أنك اذا قلت : جاءنى زيد أو عمرو وقع الخبر فى (زيد) يقينا حتى ذكرت (أو) فصار فيه وفى عمرو شك ، و (اما) تبتدىء فيها شاكا ، وذلك قولك : جاءنى اما زيد واما عمرو أى أحدهما ، وكذلك وقوعها للتخيير تقول : اضرب اما عبد الله واما خالدا ، فالأمر لم يشك ولكنه خير المأمور كما كان ذلك فى (أو) ونظيره قول الله عز وجل « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٣) وكقوله : « فأما منا بعد وأما فداء » (٤) ، (٥) .

---

(١) سورة الانسان الآية ٢٤ . (٢) المقتضب ١٤٨/١ ، ١٤٩ .
(٣) سورة الانسان الايه ٣ .
(٤) سورة محمد الآية : ٤ (٥) المقتضب ١٤٩/١ .

فالقرآن الكريم هو الأساس الاول فى الاستشهاد عند المبرد ، فهو يضع عنوان الباب الذى يتحدث عنه ، ويمثل له بأمثلة من عنده ، ثم يذكر نظير هذه الأمثلة من القرآن الكريم ليثبت به القاعدة ويعضد به ما ذكر من أمثلة .

وقد يضيف الى الاستشهاد بالآية القرآنية شاهدا شعريا أو أكثر زيادة فى تثبيت القاعدة .

مثال ذلك قوله فى (باب من مسائل الفاعل والمفعول به) .

« وتقول : أعجبنى ضرب زيد عمرا ، وان شئت قلت : ضرب زيد عمرو اذا كان عمرو ضرب زيدا تضيف المصدر الى المفعول كما أضفته الى الفاعل ، وان نونت أو أدخلت فيه ألفا ولاما جرى ما بعده على أصله فقلت : أعجبنى ضرب زيد عمرا وان شئت نصبت (زيد) ورفعت عمرا أيهما كان فاعلا رفعته تقدم أو تأخر وتقول : أعجبنى الضرب زيد عمرا فمما جاء فى القرآن منونا قوله : « أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة » (١) وقال الشاعر فيما كان بالألف واللام :

لقد علمت أولى المغيرة أننى
لحقت فلم أنكل عن الضرب مسمعا (٢)

---

(١) سورة البلد الآية ١٤ ، ١٥ .

(٢) المغيرة : وصف للخيل أو وصف للجماعة ، والنكول : الرجاع جبنا ، ومسمع : هو ابن شيبان احد بنى قيس بن ثعلبة كان قد خرج مطالبا بدماء .

ينظر البيت فى سيبويه ٩٩/١ بولاق ، والمقتضب ١٥٢/١ ، والخزانة ٤٣٩/٣ ، ٤٤٠ .

أراد عن ضرب مسمعا ، فلما أدخل الألف واللام امتنعت الاضافة فعمل عمل الفعل ومثله قوله :

وهن وقوف ينتظـرن قضـاءه
بضاحى عذاه أمره وهو ضامز(١)

أى ينتظر أن يقضى أمره ، فأضاف القضاء الى ضميره » (٢) •

وقد كان المبرد يبسط القول فى شرح الآية التى يستشهد بهـا فى بعض الأحيان •

مثال ذلك قوله فى (ما يحكى من الأسماء وما يعرب) « وتقول : رأيت على فصـه الأسـد رابضـا ، لأنك لم تر هذا مكتوبا ، انما رأيت صـورة فأعملت فيهـا الفعل كما تقـول : رأيت الأسـد يا فتى •

فأما قـوله عز وجل : « قالوا سـلاما قال سلام » (٣) فان المفسرين يقولون فى هـذا قولين أعنى المصوب •

أما المرفوع فلا اختلاف فى أن معناه — والله أعلم — قولى سلام

النزية الكريمة النبت والضامز : الرجل الساكت •
ينظر البيت فى المقتضب ١٥٣/١ ، والمغنى لابن هشام ١٢٥/٢ •
(١) الضاحى من الأرض ، الظاهر البارز ، والعذاة : الأرض الطيبة
(٢) المقتضب ١٥٢/١ ، ١٥٣ •
(٣) الذرايات الآية ٢٥ •

وأمرى سلام كما قال : « طاعة وقول معروف (١) » وكما قال « وقالوا مجنون وازدجر (٢) » على الحكاية .

وأما المنصوب فباضمار فعل كأنهم قالوا : سلمنا سلاما .

وقال بعضهم : لم يكن هذا هو اللفظ ولكنه معنى ما قالوا ، فانما هو بمنزلة قلت حقا (٣) » .

ويقول فى (باب اذن) « واعلم أنها اذا وقعت بعد واو أو فاء صلح الأعمال فيها والالغاء لما أذكره لك .

وذلك قولك : ان تأتنى آتك واذن أكرمك . ان شئت رفعت وان شئت نصبت وان شئت جزمت .

أما الجزم فعلى العطف على آتك والغاء (اذن) والنصب على اعمال (اذن) والرفع على قولك : وأنا أكرمك ، ثم أدخلت (اذن) بين الابتداء والفعل فلم تعمل شيئا .

---

(١) سورة محمد الآية ٢١

(٢) القمر الآية ٩ .

(٣) المقتضب ٤/١١ وقال أبو حيان فى تفسير واعراب قوله تعالى : « قالوا سلاما قال سلام » « قرأ الجمهور (قالوا سلاما) بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به (قال سلام) بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام . قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه أخذا بأدب الله تعالى اذ (سلاما) دعاء ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أى : مرى سلام .

قال ابن عطية : ويتجه أن يعمل فى (سلاما) قالوا على أن يجعل (سلاما) فى المعنى قولا ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا تحية وقولا معناه سلاما ، وهذا قول مجاهد » .

ينظر البحر المحيط ٨/١٣٨ ، ١٣٩ .

وهذه الآية فى مصحف ابن مسعود « واذن لا يلبثوا خلفك » (١) الفعل فيها منصوب باذن والتقدير — والله أعلم — الاتصال باذن ، وان رفع فعلى أن الثانى محمول على الأول كما قال الله عز وجل « فاذا لا يؤتون الناس نقيرا » (٢) أى : فهم اذن كذلك « (٣) .

ويقول فى حديثه عن الفعل المضارع أيضا « وأما قول الله عز وجل « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » (٤) فهذا هو الوجه ، لأنه ليس بجواب ، لأن المعنى فى قوله (ألم تر) انما هو : انتبه وانظر . أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا وليس كقولك : ألم تأت زيدا فيكرمك ، لأن الاكرام يقع بالاتيان ، وليس اخضرار الأرض واقعا من أجل رؤيتك » (٥) .

وكان المبرد ان عرضت فى الكلام مسألة يجوز فيها أكثر من وجه استشهد منها بما ورد فى القرآن الكريم .

مثاله قوله فى (باب الفعل بعد (ان) وانقطاع الآخر من الأول) .

« اعلم أنك اذا أردت بالثانى ما أردت بالأول من الاجراء على الحرف لم يكن الا منسوقا عليه . تقول : أريد أن تقوم فتضرب زيدا ، وأريد أن تأتينى وتكرمنى وأريد أن نجلس ثم تتحدث يا فتى .

---

(١) النساء الآية ٥٣ .
(٢) الاسراء الآية ٧٦ .
(٣) المقتضب ١٢/٢ .
(٤) الحج الآية ٦٣ .
(٥) المقتضب ٢٠/٢ .

فان كان الثانى خارجا عن معنى الأول كان مقطوعا مستأنفا وذلك بقولك :

أريد أن تأتينى فتقعد عنى ؟ وأريد أن تكرم زيدا فتهينه ؟

فالمعنى : أنه لم يرد الاهانة انما أراد اكرام ، فكأنه فى التمثيل : أريد أن تكرم زيدا فاذا أنت تهينه وأريد أن تأتينى فاذا أنت تقعد عنى ولو قال قائل : أريد أن تأتينى وأنت تكرمنى أى : أريد أن تأتينى وهذه حالك لجاز .

وتقول : أريد أن تتكلم بخير أو تسكت يا فتى فالنصب على وجهين :

أحدهما : أريد ذا أو ذا .

والوجه الآخر : أن يكون حتى تسكت كما تقول : لأجلسن معك أو تنصرف يا فتى على قولك : حتى تنصرف .

فأما قوله عز وجل : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا (١) » فان النحويين يزعمون أن الكلام ليس محمولا على أن يكلمه الله ولو كان (يرسل) محمولا على ذلك لبطل المعنى . . . . وأما قوله (لنبين لكم ونقر فى الأرحام (٢) » على ما قبله وتمثيله : ونحن نقر فى الأرحام ما نشاء .

---

(١) سورة الشورى الآية : ٥١ .
(٢) سورة الحج الآية : ٥ .

وأما قوله « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة » (١) فيقـرأ رفعا ونصـــبا ٠

فمأا انتصب فعلى قوله « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس » (٢) أى : ما كان له أن يقـول للناس ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة ومن قرأ (يأمركم) بالرفع فانما أراد : ولا يأمركم وقطعه من الأول » (٣) ٠

هذا موقف أبى العباس المبرد من الاستشهاد بالآيات القرآنية فى كتابه المقتضب وهذه طريقته فى الاستشهاد بها وقياسه عليها واستفادته منها بصـــورة موجزة أما موقفه من القراءات القرآنية ، فانه يدفعنى للحديث بصـــورة موجزة عن القـــراءات القرآنية ، وموقف المدرستين البصرية والكوفية منها ، وهل كان المبرد من الذين حملوا على القراء ؟ وهل فى كتاب المقتضب ما يثبت ذلك ؟

أماالقراءة القرآنية فهى : « اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتبة الحروف وكيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما » (٤) ٠

وقد اختلف القدماء من المفسرين والقراء فى تفسير قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٠ ٠
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٩ ٠
(٣) المقتضب ٢/٣٣ ، ٣٥ ٠
(٤) ينظر البرهان فى علوم القرآن ١/٣١٨ ٠

« قرىء القـــرآن على ســـبعة أحرف فاقرأوا كيف شـــئتم » أو « اقرأوا ما تيسر منه » ففسره كل حسبما يراه ، وقد ناقش ابن قتيبة آراء سابقيه فيه ورد عليهم ، ورأى أن المقصود من ذلك أنه أنزل على سبعة أحـــرف أى : أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن الكريم .

واستدل على هذا الرأى بدليلين :

أولهما : الرواية الأخـــرى لحـــديث النبى صلى الله عليه وســـلم « قرى القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تفرق منه » .

ثانيهما : قول عمر رضى الله عنه « سمعت هشـــام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أقرأنيها فأتيت به النبى فأخبرته فقال : اقرأ : فقـــرأ تلك القـــراءة فقـــال : هكذا أنزلت ثم قال لى اقرأ : فقرأت فقـــال : هكذا أنزلت ، ثم قال : ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا منـــه ما تيسر ، فمن قرأه قراءة عبد الله فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد فقد قرأ بحرفه » (١) .

ولم تكن هذه القراءات السبع متميزة بعضها عن بعض فى صـــدر الاسلام انما تميزت فى القرن الرابع حينما جمعها أبو بكر بن مجاهد ، وعد القراءات السبع هى المنقولة عن الأئمة السبعة (٢) .

وقد اختلف فى تواتر هذه القراءات السبع عن الرسول صلى الله

---

(١) ينظـــر تأويل مشـــكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٦ ، ٢٧ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار احياء الكتب العربية بمصر .

(٢) دراسات فى كتاب سيبويه ص ٢٥ .

عليه وسلم ، فيرى الجمهور أنها متواترة ، ويرى البعض أنها مشهورة ولا تصل الى حد التواتر ولا عبرة لانكار بعض العلماء لبعض هذه القراءات .

يقول العلامة الزركشى « والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة ، أما تواترها عن النبى صلى الله عليه وسلم ففيه نظر (١) » .

ويرى ابن الجزرى أن القراءة التى يؤخذ بها هى « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحل انكارها ، بل هى الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت من السبعة أم عمن هو أكبر منهم .

هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف » (٢) .

أما موقف علماء البصرة من الاستشهاد بالقراءات ، فقد استشهدوا بالقراءات المتواترة غير المخالفة للقياس وكذا كان موقف علماء الكوفة .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ١/٣١٨ ، ٣١٩ ، ودراسات فى كتاب سيبويه ص ٢٧ .

(٢) النشر فى القراءات العشر ١/٩ تحقيق على محمد الضباع – مصر

أما الإحتجاج بالقراءات الشـــاذة والقياس عليها واعتبارها أصلا من أصـــول الإستشهاد فهـــو ليس من منهـــج البصريين ، لأنهـــم لم يكونوا يعتبرون من القراءات حجة الا ما كان موافقـــا لقواعـــدهم وأقيستهم وأصـــولهم المقررة فان خالفتها ردوها •

فى حين كانت القراءات مصـــدرا من مصـــادر النحـــو الكوفى ، فالكوفيون يأخـــذون بالقراءات السبع وبغيرها من القراءات يحتجون بهـــا فيما له نظير من العربية ، ويجيزون ما ورد فيها مما خالف الوارد عن العرب ، ويقيســـون عليها فيجعلونها أصـــلا من أصـــولهم التى يبنون عليها القواعد والأحكام •

وهم اذا رجحوا القراءات التى يجتمع عليها القـــراء ، فـــلا يرفضـــــون غيرها ، ولا يغلطونها (١) ومن أمثلة ذلك رفض البصريين الاحتجاج بقراءة حمزة وغيره « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام أن الله كان عليـــكم رقيبـــا » (٢) بجـــر الأرحام ، وهى قـــراءة ســـبعية •

وخلاصة القاعدة التى يدور حولها الخلاف هى : عطف الاســـم الظاهر على الضـــمير المجـــرور فالكوفيـــون يجيزونه ، والبصريون لا يجيـــزونه (٣) •

---

(١) ينظر دراسات فى كتاب سيبويه ص ٣١ ، ٣٢ •

(٢) سورة النساء الآية ١ •

(٣) ينظر الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين ـ د/أحمد مكى الأنصارى ـ دار المعارف مصر سنة ١٩٧٣ م ص ١ : ٤ •

أما غير شيوخ هاتين المدرستين من النحويين المتأخرين فاننا نجد منهم من تطرف ورفض الاستشهاد بالقراءات الشاذة ومنع القياس عليها ، ومنهم من توسط بين المدرستين كابن جنى الذى لا يأخذ برأى احدى المدرستين ، فهو وان كان يميل الى المدرسة البصرية الا أنه أكثر منهم اعتدالا ، ومع اعتداله نجده يخطىء بعض القراءات ويرى بعضها معيبا (١) .

أما أبو العباس المبرد فقد نهج نهج أستاذه المازنى الذى كان له نصيب موفور فى قيادة الحملة الآثمة على القراء ، فقد طاب له أن يختم كتابه التصريف بالطعن على القراء ، والسخرية منهم ، وعدهم من الجهلاء الذين يتعلقون بالألفاظ ويجهلون المعانى (٢) .

والمبرد فى كتابه المقتضب أثبت ما ذكره المازنى فى تصريفه من الطعن على نافع بين نعيم أحد القراء السبعة (٣) .

وقد تتبع أستاذنا الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة المبرد فى موقفه من القراء فى كتابيه المقتضب ، والكامل ، وذكر أمثلة من تطاوله على

---

(١) ينظر الخصائص ١/٩٣ ، ٩٤ حديثه عن قوله تعالى : « وقيل من راق » ، ١/٩٩ .
حديثه عن قوله تعالى « ماودعك ربك وما قلى » ، ٢/٣٣٠ حديثه عن قوله تعالى : « ثم ليقطع .. » وينظر دراسات فى كتاب سيبويه ص ٣٣ وما بعدها .
(٢) مقدمة المقتضب ١/١١٩ بتصرف .
(٣) المرجع السابق ١/١١٩ .

القراء : وما نقله من كتاب التصريف للمازني وتفضيله لقراءة سبعية على أخرى سبعية وفصل القول فى كل قراءة تفصيلا لا يحتاج الى مزيد عناية •

واكتفى بذكر مثالين : يتضح من خلالهما موقفه من القراءة القرآنية •

١ ــ يقول فى المقتضب (باب الأمر والنهى) « وأما قراءة من قرأ « ثم ليقطع فلينظر » (١) فان الاسكان فى لام (فلينظر) جيد ، وفى لام (ليقطع) لحن ، لأن (ثم) منفصلة من الكلمة ، وقد قرأ بذلك يعقوب بن اسحاق الحضرمى » (٢) •

وقراءة تسكين اللام فى (ثم ليقطع) ، (ثم ليقضوا) قراءة أربعة من السبعة • وقرأ ثلاثة بتحريك اللام بالكسرة (٣) •

٢ ــ يقول فى المقتضب (باب من مسائل ما) « وقد قرأ بعض القراء (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٤) فعطف على (أن) وعلى (فى) وهذا عندنا غير جائز » (٥) •

---

(١) سورة الحج الآية ١٥ •
(٢) المقتضب ١٣٤/٢ •
(٣) المقتضب ١١٩/١ ، ١٢١ ، والنشر ٣٢٦/٢ •
(٤) سورة الجاثية الآية ٥وهذه القراءة السبعة ــ هامش المقتضب ١٩٥/٤ •
(٥) المقتضب ١٩٥/٤ ، وينظر ١٢٠/١ •

٢ ــ الحديث الشريف

أما الحديث النبوى الشريف فهو الأصل الثانى من أصول الاستشهاد بعد كلام الله عز وجل .

وقد بين الشيخ محمد الخضر حسين المقصود به بقوله : « ثم تبين لى أن كتب الحديث تشتمل على أقواله (ص) وعلى أقوال الصحابة تحكى فعلا من أفعاله عليه السلام أو حالا من أحواله ، أو تحكى ما سوى ذلك من شئون عامة أو خاصة تتصل بالدين ، بل يوجد فى كثير من كتب الحديث أقوال صادرة عن بعض التابعين وكذلك نرى المؤلفين فى غريب الحديث يوردون ألفاظا من أقوال رسول الله (ص) أو أقوال الصحابة أو أقوال بعض التابعين كعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وهذه الأقوال المنسوبة الى الصحابة أو التابعين متى جاءت من طريق المحدثين تأخذ حكم الأقوال المرفوعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الاحتجاج بها فى اثبات لفظ لغوى أو قاعدة نحوية (١) » .

ولما كان الحديث هو كلام النبى صلى الله عليه وسلم فقد كان من الواجب أن يعد بعد القرآن الكريم فى منزلة الاستشهاد به لولا أن المسلمين الأوائل أجازوا روايته بالمعنى ولم يعتمدوا فيه على اللفظ الذى نطق به الرسول (ص) غالبا .

---

(١) دراسات فى العربية وتاريخها ص ١٦٦ ــ ١٦٧ ــ الشيخ محمد الخضر حسين ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م .

ولذا فان أئمة النحو البصرى والكوفى على السواء والمتقدمين منهم وكثيرا ممن جاء بعدهم من المؤيدين لهذين المذهبين أو من الذين يعدون مؤسسى مدرسة بغداد أو مصر أو الأندلس لا يعتمدون على الحديث ولا يعدونه أصلا من أصول الاستشهاد وتقعيد القواعد النحوية من أجل صحة روايته بالمعنى ، وعدم التأكد من أن ألفاظ الحديث هى التى نطق بها النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

ويمكننا أن نقسم موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الى ثلاث طوائف :

١ ــ طائفة منعت الاحتجاج به مطلقا وعلى رأسها أبو حيان النحوى (ت ٧٤٥ هـ) وشيخه أبو الحسن ابن الضائع (ت ٦٨٠ هـ) متابعين فى ذلك من النحاة من شيوخ المدرستين البصرية والكوفية .

٢ ــ وطائفة اتخذت الوسط سبيلا وعلى رأسها الشاطبى ت ٧٦٠ هـ) والسيوطى (ت ٩١١ هـ) وكثير من المحدثين .

٣ ــ وطائفة ثالثة أجازت الاستشهاد بالحديث كله وعلى رأسها ابن مالك الأندلسى (ت ٦٧٢ هـ) وابن هشام الأنصارى (ت ٧٦١) .

وكل طائفة ذكرت الدليل الذى يعضد وجه نظرها فيما ذهبت اليه (٢) .

---

(١) دراسات فى كتاب سيبويه ص ٤٩ بتصرف .

(٢) يراجع هذا الموضوع فى : الاقتراح ص ١٨ ، ٤٩ تحقيق د. أحمد محمد قاسم ، والخزانة ١/٤ : ٦ كتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ، وشرح الألفية للشاطبى (باب الاستثناء) وغيرها .

أما موقف أبى العباس المبرد فى المقتضب من الاستشهاد بالحديث الشريف فانه لم يستشهد به الا فى موضع واحد صرح فيه بأنه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قال فى (باب جمع ما لحقته الهمزة فى أوله من الثلاثة) « فان جعلت (أحمر) اسما جمعته بالواو والنون فقلت : الأحمرون والأصفرون ، وقلت فى المؤنث حمروات وصفروات ، وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم « ليس فى الخضروات صدقة » لأنه ذهب مذهب الاسم (١) » .

وذكر فى بعض المواضع لفظ (وفى الحديث) ولكنه أراد به الخبر ولم يرد به الحديث النبوى الشريف .

مثال ذلك قوله فى (باب اللفظ بالحروف) « وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : (العين وكاء السه (٢)) .

ثم قال فى (باب الأسماء التى وقفت على حرفين) « وفى الحديث « العين وكاء السه » معناه : أن الانسان اذا كان متنبها علم ما يخرج منه الريح (٣) » .

فقوله (العين وكاء السه) مرة جعله من كلام الامام على ومرة جعله حديثا ، وذهب السيوطى الى أنه حديث ضعيف (٤) .

---

(١) ينظر المقتضب ٢/٢١٧ ، ٢١٨ وتعليق الشيخ العضيمة هامش ٢/٢١٨ .

(٢) المرجع السابق ١/١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ١/٣٦٨ .

(٤) ينظر هامش المقتضب ١/١٢٧ .

٣ ــ أقوال العــرب شــعرهم ونثرهم

قول العرب هو اللفظ الدال على معنى ينطق به من يوثق بعربيته ، والنحويون يؤصلون قول العرب تأصيلا ، لأنهم يعلمون أنهم بنسبتهم الى النحــو منتصبون للاستنباط مما يقول العرب ووضــع الأحكام له حتى غلب على علم النحو أنه علم العربية ، فهم يهتمون باللفظ الدال على معنى ، لأن علمهم لسانى لا يعتمد على غير اللفظ بالخط والرمز ، ولا يتعلق بالمهمل ، لأن العرب لا يعدونه من لغتهم ، وهم ينظرون الى من يوثق بعربية لغته ولو كان عبدا غمرته البيئة العربية (١) .

وأبو العباس المبرد فى كتابه المقتضب أكثر من الاستشهاد بأقوال العرب شــعرهم ونثرهم .

(ا) الشــواهد الشــعرية :

بلغت الشواهد الشعرية فى كتاب المقتضب كما يقول محققه ٥٦١ شــاهدا . وقد اعتمد فى معظمها على شــواهد ســيبويه التى بلغت جملتها ٣٨٠ شاهدا وكان فى القليل ينسب البيت لقائله (٢) .

مثال ذلك قوله فى (باب ونقــول فى مسائل طــوال يمتحن بهــا المتعلمون) « وقد يجوز أن يبدل الشيء من الشيء اذا اشتمل عليه معناه لأنه يقصــد قصد الثانى نحو قولك : سلب زيد ثوبه . . . . ولو نصبت الثوب كان أجود اذا لم ترد البدل . . . . ومثل ذلك قول الأعشى ينشد كما أصف لك :

(١ المعنى والاراب عند النحويين ص ٤٨ .

(٢) المقتضب ١/٩٣ .

لقـد كان فى حـــول ثـواء ثويتـــه
تقضى لبانات ويسأم سائمه (١)

فقد نسب البيت للأعشى الذى كان من أكثر الشـعراء شـواهد فى المقتضب بعد الفرزدق وجرير (٢) .

وكان المبرد لا يعنى بذكر موضع الشاهد بل يكتفى بذكر البيت لتقرير القاعدة النحـوية تاركا للقارىء معرفة موضع الشاهد .

مثال ذلك قوله فى (باب المجازاة وحروفها) .

والمجازاة بأى قوله : « أيا ما تدعوا فله الأسـماء الحسنى » (٣) وبمتى قول طرفة :

متى تأتنى أصـبحك كأسـا روية
وان كنت عنها غانيا فاثمن وازدد (٤)

وكان المبرد فى بعض الأحيان يستشهد بأكثر من بيت على القاعدة النحوية التى يريد تقريرها .

مثـال ذلك قوله فى (باب الشيئين المجعولين اسـما واحـدا وأحدهما حـرف أو كلاهما) « ونظير ما قلت لك فى الحرف اذا كان مفردا قوله :

---

(١) استشهد به سيبويه ٤٢٣/١ على فتح الفعل يسأم . ينظر المقتضب ١٦٥/١ .
(٢) المقتضب ٩٣/١ .
(٣) سورة الاسراء الآية : ١١٠ .
(٤) المقتضب ٤٩/٢ .

ليت شـــعرى وأين منى ليت
ان ليتـــا وان لـــوا عنـــاء

لما جعله اسما أعربه ، ومثله :

ألا ليتنى والمـــرء بيت
وما يغنى من الحدثان ليت (١)

وقد استكثر المبرد من انكار بعض الروايات التى تخالف القيـاس العام مما عرضه لنقد شديد (٢) .

(ب) الشـــواهد النثرية :

تضمن كتاب المقتضب الكثير من الشواهد النثرية من أقوال وأمثال لمن يوثق بعربيتهم .

مثال ذلك قوله فى (باب من مسائل باب كان وباب ان فى الجمع والتفرقة) « وان شئت رفعت منطلقا فيكون رفعه على وجهين :

أحدهما : أن تجعل كان زائدة مؤكدة للكلام نحو قول العرب : ولدت فاطمة بنة الخرشب الكملة من بنى عبس لم يوجد كان مثلهم . على الغاء كان » (٣) .

ومثال ذلك قوله فى (باب الأفعال التى تسمى أفعال المقاربة) .

---

(١) المرجع السابق ٤/٣٢ ، ٣٣

(٢) فصل الاستاذ الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة هذه القضية فى مقدمة المقتضب ١/١١٧ ، ١١٨ فلتراجع .

(٣) المقتضب ٤/١١٦ .

« وأما قولهم فى المثل : (عسى الغـــوير أبؤســـا) فانمـــا كان التقدير : عسى الغوير أن يكون أبؤسا » (١) .

وبعـــــد .

فهذه اشارات أردت بها كشف الضوء عن أصول النحو السماعية فى كتاب المقتضب لأبى العباس المبرد .

والله ولى التوفيق ...

د. محمد محمد فهمى عمر

---

(١) المرجع السابق ٣/٧٠ ، ٧٢ .